دراسات عن التصوف

٣

الرفاعية

دراسة مستفيضة عن مبادئهم وأحوالهم من خلال
كتبهم ومصادرهم، ومن متابعة بعض أحوالهم ميدانياً

عبد الرحمن دمشقية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

المقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمـا بعـد:

فيأتي هذا البحث ضمن سلسلة دراسات عن التصوف، هو الثالث من بينها بعد كتاب «النقشبندية» وكتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله.

ولقد أرجأت إخراج هذا البحث لأربع سنوات خلت، وذلك لظروف اضطرارية ثم تمكّنت بفضل الله تعالى على إتمامه في الآونة الأخيرة.

وهذه الدراسات إنما تهـدف إلى إعادة النـظر في هذه الـطرق وتقييمها ودراستها دراسة جادّة وهادفة، بعيداً عن ضجيج المهاترات الكلاميـة التي لا ينتج عنها إلا المزيد من الإصرار والمعاندة وذلك إيماناً مني بضرورة بيان حقيقة هذه الطرق باللين والرفق والموعظة الحسنة كما قال تعالى: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ وإذا كنا مأمورين أن نجادل أهل الكتاب بالموعظة الحسنة فأهل كتابنا أولى بذلك منهم.

لقد بقيت هذه الطرق تؤكد بحزم وثبات أن أحوالها وأفعالها وأذكـارها مطابقة للسنّة المطهّرة، وجاءت هذه الدراسات لتتحقق من مدى صدق هذه الدعوى ولتكون بمثابة إجراء اختباري لصحتها. وهذا لا شيء يعيبه.

فإن الناس يدّعون ما يشاؤون غير أنه بالتمحيص والتجربة يميّز الخبيث من الطيب، ويفترق الحق عن الباطل.

وهذا منهج قرآني علمنا الله تعالى إياه بقوله: ﴿أحسب الناس أن يتركوا

أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (العنكبوت). والفتنة هنا بمعنى الاختبار والامتحان وهي من الضرورة بمكان، وذلك حتى لا يتأتى لأحد أن يدّعي دعوى هو فيها كاذب.

وهذا البحث الثالث في سلسلة دراسات التصوف يتناول الطريقة الرفاعية الواسعة الانتشار في بلاد الشام وتركيا ومصر ولبنان وغيرها، ويفصل مبادئها وميولها ومراتبها واتجاهاتها.

ولقد حرصت فيه على الإكثار من النقل عن مصادر الطريقة الرفاعية وكتبها المعتمدة، والتي عرفت بالطريقة وشيخها ومبادئها. وتجنّبت الإستطراد وكثرة التعليق ما استطعت وذلك حرصاً مني على إحاطة القارىء الكريم بأكثر قدر ممكن مما تضمنته كتب الطريقة. فإن أفضل ما يتيح للقارىء التعرّف على مبادىء الرفاعية إنما يكون من خلال ما دوّنه المنتسبون إليها وكتبوه.

فإنني متيقن بأن كثيرين ممن ينتسبون إلى الطريقة الرفاعية لا يعلمون الكثير عن الحقائق المثيرة التي أنقلها عنهم هنا علمها، وستفاجئهم هذه النصوص المنقولة عنهم. لكن هذه المسألة الجادة تتطلّب الرويّة والإنصاف وعدم الميل إلى أحد الخصمين قبل سماع ما عند كليهما.

لقد سافرت خصيصاً من أجل البحث عن كتب الرفاعية والتعرّف على أمكنتها بغية قراءتها ووجدت بغيتي في دار الكتب المصرية بالقاهرة التي وجدت فيها ما يزيد على الستين كتاباً غالبيتها من تصنيف محمد أبي الهدى بن حسن وادي الصيادي الذي كان مستشاراً دينياً ومرجعاً أعلى للخليفة العثماني السلطان عبدالحميد رحمه الله.

لقد حرصت في بحثي هذا على عزو النقول إلى أصحابها وبيان أسماء كتبهم وأرقام صفحاتها ومكان وتاريخ طبعها لأسهل الطريق على كل من أراد التثبت من صحتها ولئلا يرتاب مرتاب ولكي أتيح المجال بسهولة تامة أيضاً لأتباع الطريقة الرفاعية فيكتشفوا حقائق عن الطريقة طالما حرص شيوخها على صرفها عنهم.

لقد فعلت ذلك إيماناً مني بأنه ليس في ديننا شيء مكتوم وأن الدين واضح لا لبس فيه ولا غموض، وليس فيه عوام لا يجوز اطّلاعهم على علم «الحقيقة» أو خواص يمتازون به عن غيرهم. إذ أن مشايخ الطريقة يكتمون وجه طريقتهم الحقيقي عن عامة الناس ويوهمونهم أنهم ليسوا على المستوى الذي يؤهّلهم لسبر أغوارها لأن ذلك فوق طاقتهم وأنه لم يحن الأوان لمكاشفتهم بأسرارها بعد.

ولقد بدأت حركة هذه الفرقة الرفاعية تنشط في لبنان بواسطة عبدالله الحبشي الأفريقي الذي عمل ويعمل على بث التصوف في السلوك والتعطيل والتكفير واعتساف نصوص الكتاب والسنة في مجال العقائد.

ولقد لقيت مرة واحداً من المنتسبين إلى الطريقة الرفاعية وهو من أتباع الحبشي أيضاً وكان يخبرني بأن شيخه علّم ما يزيد على الثلاثة آلاف تلميذ أحكام الشريعة ومبادئها لكنه لم يعلّم أسرار الطريقة الرفاعية إلا لثلاثة من خواص تلاميذه.

فقلت: هذا فيه تفضيل للحقيقة الصوفية على الشريعة النبوية، فإنه إذا كانت مبادىء الطريقة نافعة للمسلمين في دينهم ودنياهم فما وجه كتمانها؟ لقد اعتبر الإسلام كتم العلم من الذنوب التي يعاقب الله عليها، قال رسول الله ﷺ: «من كتم علماً لجم يوم القيامة بلجام من نار»[1].

واعتبره أيضاً من الخيانة، قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعدما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة: ١٥٩).

وليست مبادىء الطريقة الرفاعية أعز وأفضل من أحكام الشريعة حتى يكتفي بتعليمها لثلاثة فقط في حين يعلم الشريعة لآلاف من البشر!!.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٩٦) والحاكم (١٠٢/١) وصححه ووافقه الذهبي.

وهل في كتم العلم تفاخر وهو في الحقيقة من تعاليم الباطنية الذين يعتبرون أنفسهم أنهم يمرون الآن بمرحلة الستر والكتمان فيكتمون الدين حتى عن عوامهم ويشترطون عليهم لمعرفته أن يبلغوا سن الأربعين.

هدية لكل مسلم:

وبما أنهم قد أخفوا عنك أسرار هذه الطريقة أيها الأخ المسلم، وأوهموك أن في كتمها عنك: خيراً لك؟.

فها أنا أجعل مبادئها وأصولها واتجاهاتها بين يديك، أمنحك خالص خبرتي في هذه الطريقة كي تكون على بيّنة من أمرك إن فكرت في الدخول إليها يوماً، فلقد جبت المناطق شرقاً وغرباً أبحث عن كتب الرفاعية وأحصيها لأوفر عليك عناء البحث والتنقيب، ووضعت بين يديك أرقام صفحات كتبهم فيما لو أردت التحقق من صدقي فيما نقلته عنهم، وذلك من باب ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ وما عليك بعد ذلك إلا أن تختار لنفسك ما يناسب نجاتك يوم الدين.

لقد كنت ولا أزال ولله الحمد أشعر بالغيرة على أهل السنّة في بلدي، وأرى بعيني الخطر يحدق بهم من أئمة الضلال الذين جاءوا ليفسدوا عليهم دينهم وليخلطوا لهم السنّة بمزيج سم البدعة، وليجعلوا من الإستغاثة بغير الله توحيداً، ومن تكفير المسلمين عقيدة.

وإنني أشعر أن واجبي تجاههم عظيم وهو أن أبينّ وأظهر الحقيقة لهم، وألا أكتم الحق أو أسكت عن الباطل فإن المنهج الإسلامي يحرّم ذلك على من أوتي شيئاً من الفهم، فإنه كلما ازدادت العلوم والمفاهيم كلما ازدادت المسؤولية أمام الله عز وجل. فإن من الناس فئة من ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ وهم في حاجة ماسة إلى من يرشدهم ويعلمهم ويحذرهم. وإلا فالسكوت عن الحق والسكوت على الباطل ليس إلا سلامة في الدنيا، وهو عذاب وحساب في الآخرة: وهل يقاس عذاب الدنيا بعذاب الآخرة. قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ (العنكبوت: ١٠).

وفي الختام أشير إلى أن همي كان منصباً في هذا البحث في التوصل إلى الحق واستبانته ومن ثـم تبيينه لمن يريدون معرفة أسرار هذه الطريقة ويريدون بإخلاص وتجرد: معرفة الحق من الباطل. ولسـت أدّعي فيه العصمة والإحاطة بكل المطلوب. غيـر أني التمس من القارىء الكريم إن كانت لديه أية ملاحظة أو وجد خطأ أو زللاً أو مخرجاً صحيحاً لعبارات توهم معنى باطلاً، أو نقضاً لواقعة تـاريخية أو إسـاءة من قريب أو من بعيـد ـ فضلاً عن إمـام من أئمة المسلمين ـ: إذا كان وجد شيئاً من ذلك أن يرسل إليّ اقتراحاته ووجهة نظره على العنوان التالي:

المملكة العربيـة السعوديـة ـ الريـاض ـ ص.ب. ٧٦١٢ رمز بـريدي ١١٤٧٢.

نسأل الله تعالى السداد في القول والعمل وأن يجعل أعمالنا صالحة على وفق ما شرعه لنا وأن يجعل النوايا خالصة لوجهه الكريم إنه سميع عليم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكتاب الأول

الفصل الأول
سيرة الرفاعي من خلال كتب المؤرخين[1]

ولد الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله في أول سنة خمس مائة.

قال الذهبي في ترجمة الرفاعي: «الإمام القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي المغربي ثم البطائحي، وكان قدم أبوه من بلاد المغرب وسكن البطائح في قرية «أم عبيدة» وهي قرية من قرى واسط بالعراق. ثم توفي وأم أحمد حمل به[2]. ونشأ في كنف خاله الشيخ منصور الزاهد الذي اعتنى به. وكان شافعياً تفقه قليلاً[3] على مذهب الشافعي رحمه الله. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: «ويقال إنه حفظ التنبيه في الفقه على مذهب الشافعي»[4].

قال الذهبي: «وكان كثير الاستغفار عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص، وكان متواضعاً يجمع الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل». وكان يقول: «أقرب الطريق الانكسار والذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على

(١) مصادر نقترح الرجوع إليها في ترجمة الشيخ أحمد الرفاعي وهي:
سير أعلام النبلاء ٢١/٧٧، العبر في خبر من غبر ٣/٧٥، البداية والنهاية ٢١/٣١٢، الكامل في التاريخ ١١/٢٠٠، مرآة الزمان لابن الجوزي السبط ٨/٣٧٠، الوافي بالوفيات ٧/٢١٩، وابن العماد في الشذارت ٤/٢٥٩، وابن خلكان في الوفيات ١/١٧١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٢١/٧٧ - ٨٠.

(٣) هذا اللفظ للذهبي كما في كتابه العبر في خبر من غبر ٣/٧٥، ط. دار الكتب العلمية ١٩٨٥م، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢١/٣١٢.

خلق الله وتقتدي بسمة رسول الله ﷺ». وكان لا يجمع بين لبس قميصين، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلا، وإذا غسل ثوبه ينزل في الشط كما هو قائم يفركه، ثم يقف في الشمس حتى ينشف، وإذا ورد ضيف يدور على بيت أصحابه يجمع الطعام في مئزر.

وقيل أحضر بين يديه طبق تمر، فبقي ينقي لنفسه الحشف يأكله، ويقول: أنا أحق بالدون، فإني مثله دون.

وكان لا يقوم للرؤساء، ويقول: «النظر إلى وجوههم يقسي القلب».

توفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة في جمادى الأولى رحمه الله».

ثم إن الذهبي قال في كتاب العبر: «وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة والذل والانكسار والإزراء على نفسه وسلامة الباطن ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق: من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا: ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان»(1).

مؤلفات الشيخ أحمد الرفاعي:

وقد نسبت إلى الرفاعي كتب ورسائل عديدة، فأما الكتب فنسب إليه كتاب البرهان المؤيد وكتاب حالة أهل الحقيقة مع الله، وهذان الكتابان يعتبران عند الرفاعية من أوثق ما نسب إلى الشيخ. فإنهم يقولون: «هذا الكتاب الذي عز شأن سبكه عن المثيل، الذي جمعه من مجالس وعظه شرف الدين بن عبدالسميع الهاشمي الواسطي، وقال شيخنا القوصي: ما قرىء هذا الكتاب - يعني البرهان المؤيد - على أهل مجلس إلا وظهرت لهم نفحات العرفان والإخلاص والتمكن»(2).

---

(1) العبر للذهبي ٣/٧٥.

(2) انظر المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية لأحمد بن عبدالرحيم الصيادي ٦٥، وانظر خزانة الإمداد ٦٤، وكتاب سواد العينين للشيخ عبدالكريم الرافعي.

أما كتاب «حالة أهل الحقيقة مع الله» فإنه ليس له مستند يصحح نسبته إلى الشيخ أحمد رحمه الله، وإنما أكد أتباعه صحة نسبته إليه، وهـذا الكتاب عبارة عن تعليقات على الأحاديث التي يأتي لها بأسانيد خاصة بأهل البيت عن النبي ﷺ لم تذكر في كتب الحديث كالبخاري ومسلم.

ويظهر منه عدم التضلع في علم الحديث حيث أنه يذكر كثيراً أحاديث لم تصح مثل حديث «من ولد له ولد فسماه محمداً كان هو ومـولوده في الجنـة» وحديث «نظر الولد إلى والديه عبادة» بل ويكثر أن يقول: «قال الله في بعض كتبه»[1] ثم يعول على غرائب الإسرائيليات.

النهي عن طلب الجنة والرضا بالنار:

وفي هذين الكتابين يميل إلى نقل حكم الصوفية وأقوالهم وقد ينقل من كلامهم ما لا يليق بالمسلم اعتقاده مثل تزهيد الناس في الجنة والنهي عن طلبها مثل أن ينقل عن إبراهيم قوله: «إلهي إنك تعلم أن الجنة وما فيها لا تزن عندي جناح بعوضة بعدما وهبت لي معرفتك». وأن رابعة كانت تصف من يطلب الجنة أنه «أجير سوء»[2]. مع أنه يذكر أيضاً نقيض ذلك في الكتاب نفسه[3].

وكذلك ينقل فيهما دعوة المحبين إلى الرضا بالنار وحمد الله على الدخول فيها يوم القيامة لأنها من قضاء الله! مثل قوله: إن الله أمر جبريـل أن يخبر أحـد العابدين أنه من أهل النار فلما أخبره خرّ ساجداً يشكر الله ويقول: «لك الحمد يا مولاي على قضائك وقدرك حمداً يعلو حمد الحامدين»[4].

وكذلك ينقل عنهم الإستهانة بها مثل قول أحدهم: «إلهي لا تدخلني في النار فإنها تصير علي برداً من حبي لك»[5].

(١) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ١٣٩ و١٥٣ و ١٣١.
(٢) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ٢١ و ٧١ و ٧٢ ـ ٧٣ و ٧٦ و ٨٤.
(٣) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ٥٢ ـ ٥٣.
(٤) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ١١٤ ـ ١١٥.
(٥) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ٧٢.

وكذلك يتضمن مخالفات صريحة للتعاليم النبوية مثل أنه أورد حديثاً لا صحة له يوبخ فيه النبي ﷺ أحد الناس لأنه قبّل ولده[1]. مع أن الثابت عنه ﷺ عكس ذلك تماماً.

هذا ما وجدته في الكتابين غير أنه ليس باليد ما يؤكد صحة نسبتهما إليه والله أعلم. ولعله أن يكون من الصحيح أن لا تصح نسبة ذلك إليه رحمه الله.

وهناك كتب أخرى جمعها المنتسبون إليه من بعده ككتاب «المجالس الرفاعية»، وكتاب «رحيق الكوثر» وكتاب «حكم الرفاعي». وذكر الزركلي بعضاً مَن أبيات الشعر التي نسبت إليه وقال: إن الصحيح أنها ليست له[2].

ومهما يكن من أمر فإن هذه الكتب إن ثبت صحتها فإن فيها ما يضاد كثيراً من المبادىء السنية الصحيحة بما يتنافى واعتقادات من انتسبوا إليه من بعده ممن يستغيثون بغير الله، فإننا نجد في كتابه «حالة أهل الحقيقة مع الله» النهي عن الإستغاثة بغير الله مرات عديدة، فيذكر فيه مثلا: أن الله غضب من أحد الزهاد لما أراد أن يستغيث بغيره وقال له: «أتستغيث بغيري وأنا الغياث»[3].

وكذلك كان موقفه من البدع أشد بكثير مما هو حال المنتسبين إليه اليوم، وكان يقول: «من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره لم يثبت في ديوان الرجال»[4].

إذن فهذان الكتابان يظهران الرفاعي في شخصية تختلف تماماً عن الصورة التي ترسمها كتب الرفاعية في ذهن القارىء.

---

(١) انظر كتاب حالة أهل الحقيقة مع الله ٩٢.
(٢) الأعلام للزركلي ١/١٧٤.
(٣) حالة أهل الحقيقة مع الله ١٢١ - ١٢٢.
(٤) الفجر المنير ٦٣، الكليات الأحمدية ١٢٠ و١٢١، حكم الرفاعي ٢١، قلادة الجواهر ١٧٤، حكم الرفاعي ٢١، وانظر كتاب الأنوار القدسية ٢/٢٦ للشعراني.

إننا نجد الرفاعي هنا ينهى عن الإستغاثة بغير الله وعن الإبتداع في الدين مهما كان قليلاً إلى درجة أنه يروي عن أحد السلف توقفه عن أكل البطيخ لأنه لم يرو له أن السلف أكله.

فهل يتفق حاله هذا مع ما عليه المنتسبون إليه من بعده؟.

وهل التزموا ما كان يحث عليه من التقيد التام بالكتاب والسنة وترك بناء الدين على المنامات واستنباط أحكام الدين من المشاهدات المنامية وإن خالفت الأحكام الشرعية؟.

فلنتابع قراءة الفصول القادمة فإنها تحكي الجواب على ذلك.

الفصل الثاني
سيرة الرفاعي كما في الكتب الرفاعية

تختلف سيرة الرفاعي عند الرفاعية اختلافاً كبيراً عما نجده من سيرته في كتب المؤرخين وما على القارىء إلا أن يتابع ما أنقله عن كتبهم ليتأكد من ذلك.

مولده وخلقته:

لقد سرى بين الصوفية اعتقاد أن الأنبياء والأولياء خلقوا من مادة متميزة على المادة التي خلق منها البشر.

فنجد عند السهروردي مثلاً أن الطينة التي خلق منها البشر قد وطئتها قدما إبليس قبل أن يأخذها جبريل لتتكوّن منها المخلوقات.

بينما الطينة التي خلق منها الأنبياء والأولياء لم تمسها قدما إبليس فبقيت زكية نقية[1].

وأما أرواح الأنبياء والأولياء فإنها تختلف أيضاً عن طبيعة أرواح البشر كما يراه الإمام الغزالي، حيث يصف أرواح الأنبياء والأولياء بـ«الروح الأمرية» وأرواح باقي البشر بأنها «الروح البهيمية»[2].

وكانت هذه الأفكار مصدراً لباقي المتصوفة الذين غلوا في مشايخهم، حيث جعلوا لهم خلقة غير الخلقة المعهودة عند باقي البشر.

---

(١) عوارف المعارف ٤٢ ـ ٤٧ ملحق بكتاب إحياء علوم الدين.

(٢) الأربعين في أصول الدين ١٩٥.

فنجد محمد أبا الهدى الصيادي الرفاعي يجعل روح الشيخ أحمد الرفاعي مركبة من خلاصة أرواح الأنبياء بل ومن نور وجه الله عز وجل.

فقد جاء في كتابه «قلادة الجواهر» أن الشيخ أحمد الرفاعي قال: «وحق العزيز سبحانه وتعالى: قبض العزيز جل جلاله من نور وجهه قبضة فخلق منها سيدنا المصطفى محمداً ﷺ فرشحت فخلقني منها»[1].

وجاء في كتاب الروض النضير أن الله أمر كل نبي أن يعطي شيئاً من روحه إلى الشيخ الرفاعي، فأجاب الأنبياء ربهم إلى ذلك، وأعطى كل منهم شيئاً من روحه إلى الشيخ الرفاعي، فتكوّنت روحه من أرواحهم ومن روح جده المصطفى[2].

وبهذه الأقاويل يعطون الشيخ الرفاعي ميزة في الخلق على عامة البشر ليكون من طينة الأنبياء والأولياء الخاصة. يلحقونه بمرتبتهم ويجعلونه مشابهاً لهم في الأحوال والأقوال والأفعال والمقامات.

ومن هنا نجد الصيادي يؤكد لنا بأن جميع أحوال الشيخ أحمد الرفاعي كانت مطابقة لحال سيدنا محمد ﷺ منذ ولادته إلى وفاته. قال:

«كان حال الشيخ الرفاعي طبق حال رسول الله ﷺ وأوصافه موافقة في كل الشؤونات لأوصاف حبيب الله. وقد جرت عليه أحكام المطابقة والإضطرارية: كموت أبيه قبل أمه وهو حمل. وكتسميته «أحمد» وكنشأته في البطاح العربية. وكولادته في قرية حسن وإقامته بـ «أم عبيدة» بلدة جده وموته فيها وبينهما كما بين مكة والمدينة.

---

(١) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر ١٣٣، ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الفجر المنير في بعض ما ورد على لسان أحمد الرفاعي الكبير ٨، ط: المطبعة العامرة ببولاق، مصر.

(٢) الروض النضير ٧٥ للشيخ عبدالرحمن بن حسين القرشي على هامش كتاب رياضة الأسماع للصيادي، ط: المتمدن. مصر.

وكظهوره بين عرب جفاة. وكموت أولاده الذكور قبله[1] وكحصول الذرية له من بنتيه الكريمتين»[2].

الرفاعي وعقيدة ختم الولاية:

وذكر محمد أبو الهدى الصيادي أن النبي ﷺ ظهر على أبي منصور البطائحي ـ خال الشيخ الرفاعي ـ وبشّره أن الله سيرزق أخته بولد يأتي من بعده اسمه أحمد الرفاعي. يكون رأساً في الأولياء كما أنه ﷺ رأس في الأنبياء[3].

كذلك أمر النبي ﷺ الشيخ علي الواسطي أن يعتني بالرفاعي، وأكّد له بأنه: كما هو ﷺ رأس في الأنبياء فكذلك يكون الرفاعي رأساً في الأولياء، وحذره من مغبة إهمال وصيته في الرفاعي لأن شأنه عند الله عزيز[4].

وقد ضرب الصيادي مثلاً لتفضيل الرفاعي على الأولياء فقال: «إذا ذكر الأنبياء فحدثوا عنهم، وإذا ذكر محمد ﷺ فاسكتوا.

وإذا ذكر الأولياء فحدثوا عنهم، وإذا ذكر السيد أحمد الرفاعي فاسكتوا[5].

ثم بلغ بهم الغلو في إطراء الشيخ الرفاعي رحمه الله أن جعلوه خاتم الأولياء كما أن محمداً ﷺ خاتماً في الأنبياء وذلك جرياً على المشابهة التي بينه وبينه. فذكر الشيخ القرشي: أن الله قد ختم بالرفاعي الولاية كما ختم بمحمد النبوة»[6].

---

(١) هناك تعارض لدى الرفاعية حول انقطاع نسبه من أولاده الذكور سأبيّنه لاحقاً.

(٢) قلادة الجواهر ١٣٣.

(٣) تنوير الأبصار ١٢ للصيادي، التاريخ الأوحد ١٠٩، الكنز المطلسم ٦٥.

(٤) قلادة الجواهر ٢٨، ٢٩، روضة الناظرين ١٢٨.

(٥) قلادة الجواهر ٣٠ ـ ٣١، التاريخ الأوحد ١٠٨.

(٦) إرشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين ٧ للشيخ أحمد الفاروثي، التاريخ الأوحد ١٠٨، قلادة الجواهر ٤٦ و٤٣٢، المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية ٩٠ للشيخ عزالدين الصيادي.

وعقيدة ختم الولاية فكرة صوفية أول من تكلم بها الحكيم الترمذي وابن عربي وغيرهما من غلاة الصوفية، ثم أخذها المتصوفة عنهم ونسبها كل منهم لشيخه فنسبت بعد ذلك للشيخ عبدالقادر الجزائري والتيجاني وغيرهما. وحقيقة الأمر أن خاتم الأولياء هو آخر مؤمن يبقى على هذه الأرض، وليست ولاية الله تنقطع بموت أحد هؤلاء المشايخ قبل مئات السنين من الآن، فإن كل مسلم يؤمن بالله ويتقيه فهو ولي لله تبارك وتعالى.

ولهذا فإن المفهوم الصوفي للولاية بعيد جداً عن مفهوم الإسلام لها.

الرفاعي يخاطب أمه وهو في بطنها:

وجاء في كتاب الروض النضير أن الشيخ الرفاعي كان يخاطب أمه وهو في بطنها فيقول:

«يا أماه السلام عليكم. فتقول: وعليك السلام يا ولدي. ما اسمك؟.

فيقول: إسمي أحمد.

ولقد سألها مرة ـ وهو حمل في بطنها ـ: ما تطلبين من الله؟

فقالت: الرحمة.

فقال: لها أسباب سبعة:

١ ـ النية الصالحة. ٢ ـ الصلوات الخمس.

٣ ـ الإحسان إلى الفقراء. ٤ ـ صفاء الضمير.

٥ ـ حفظ اللسان من الغيبة[١].

وكانت أمه تدخل على الشيخ أبي محمد الشنبكي وهي حامل به فيقوم لها إجلالاً. فلما تكرر ذلك منه سئل عنه فقال: أنا أقوم إجلالاً للجنين الذي في بطنها، فإنه أحد المقربين إلى الله عز وجل وهو من أصحاب المقامات[٢].

---

(١) الروض النضير ١٥.

(٢) قلادة الجواهر ٢٥، روضة الناظرين للوتري، ط: المطبعة الخيرية ١٣٠٦ مصر، جامع كرامات الأولياء ٢٦٨/٢، ط: دار صادر ـ بيروت.

كيفية خروجه من بطن أمه:

قال صاحب كتاب «الروض النضير»: «ولما ولدته أمه خرج منها ويده اليمنى على صدره كما يفعل المصلي. ويده اليسرى يغطي بها عورته، وكلما رفعوا يده عن عورته أعادها ليغطي عورته.

وما أن خرج من بطن أمه حتى صار يحرك شفتيه، فأمر الشيخ منصور البطائحي بعض الحاضرين أن يقتربوا من شفتي الشيخ أحمد. فسمعوه يقول: «سبحان الذي صوركم فأحسن صوركم»[1].

ولما ولدته أمه أبى أن يرضع، وما زال على ذلك حتى أتوا له بمرضعة تقية طاهرة، فكانت تجدد وضوءها حالة إرضاعه.

ولما جاء رمضان أمسك عن الرضاع، وامتنع عن شرب الحليب نهاراً إلا بعد الإفطار وبقي كذلك إلى بعد العيد»[2].

شق الملائكة لصدر الرفاعي:

ومن قصة شق صدر النبي الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه أخذ الرفاعيون فكرة الرفاعي فذكروا عنه أنه قال لابن أخته «إبراهيم الأعزب»: «اعلم أني لما دعيت إلى هذا الأمر: حملت إلى قبلة هذا البلد، وشق صدري ملك من الملائكة المقربين، فأخرج منه شيئاً مظلماً وغسله بماء الحيوان من الرياء وسوء الخلق وكل ما للشيطان فيه نصيب، كل ذلك وأنا أنظر بعيني كما فعل برسول الله ﷺ»[3].

وهذه الحالة من الأحوال المطابقة لما حصل لسيدنا محمد ﷺ. غير أن المرء يتساءل: ما الغرض من حدوث مثل ذلك للرفاعي؟ أليكون معصوماً كما كان

(١) الروض النضير ١٧ ـ ١٨.
(٢) الروض النضير ١٥ و ١٩، قلادة الجواهر ٢٥، إرشاد المسلمين ٣٠.
(٣) قلادة الجواهر ١٤١، الفجر المنير ٨ ـ ٩، ط: العامرة ببولاق، القاهرة.

الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وأي أمر هذا الذي أخبر أنه دعي إليه أهو النبوة أم الرسالة؟.

إننا نجد عبارة أخرى بين كتب الرفاعية تحدد لنا ما هو هذا الأمر الذي دعي إليه. فقد جاء في كتاب «سواد العينين» أن الله قد رفع الشيخ الرفاعي إلى مقام القطبية والغوثية، وأنه من أجل ذلك ذهب إلى قبر النبي ﷺ وتململ على عتبته وصار يقول: «العفو العفو» إلى أن أحاط به النداء من كل جانب «فاستقم كما أمرت»(1).

إن مثل هذه الحادثة إنما وقعت للنبي ﷺ ضرورة لنبوته. فالعصمة من الزلل ومن كل ما للشيطان فيه نصيب إنما هو من ضرورات النبوة فما السبب في حصول مثل ذلك لغير النبي كالرفاعي؟.

صك بتحريم النار على الرفاعي وعلى كل ما تمسه يده:

ويدعي الرفاعية أن الشيخ الرفاعي كان بيده ورقة بيضاء فنادى أحد أتباعه وقال له: يا فلان تعال واقرأ هذه الورقة قال: فقرأتها وهي مكتوبة بالنور.

قال الرفاعي: «رأيت في المنام رسول الله ﷺ فأعطاني هذه الورقة وقال: يا أحمد، هذه براءتك من النار. قال: فأخذت الكتاب فقرأته وإذا فيه مكتوب: براءة ابن أبي الحسن من النار، ثم انتبهت وإذا الكتاب بيدي»(2).

ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد، بل ازداد ليجعل كل من مسته يد الرفاعي محرماً على النار.

فقد ذكروا أن الله وعد الرفاعي أن كل من دخل قريته أو مسّ كفه لا تأكله النار ولا تضره. وحكوا عن الرفاعي أنه أمسك مرة سمكة وأعطاها إلى

(1) سواد العينين في مناقب الغوث أبي العلمين ١٥ ـ ١٧.
(2) إرشاد المسلمين ٨٢.

أحد مريديه ليشويها له فلم تنشو ولم تنضج وبقيت نيئة على حالها فتعجب المريد من ذلك فأخبره الشيخ الرفاعي أن السبب في ذلك أن الله تعالى وعده أن لا تضر النار شيئاً مسته يده[1].

الرفاعي يبيع قصراً في الجنة:

وهذه قصة منسوبة إلى الشيخ الرفاعي مفادها أن الرفاعي قد باع رجلاً قصراً في الجنة محدد المساحة لقاء شراء بستان في الدنيا.

قال محمدأبو الهدى الصيادي: «ونقل أن الشيخ جمال الدين الخطيب كان من أكابر أصحاب السيد أحمد الرفاعي وكان يريد أن يشتري بستاناً لضرورة، فامتنع صاحب البستان عن بيعه إياه، فتشفع الشيخ جمال الدين إلى الرفاعي، فأتى رد الشفاعة من صاحب البستان (إسماعيل بن عبدالمنعم) الذي قال للرفاعي: يا سيدي إن اشتريته مني بما أريد بعتك إياه.

فقال الشيخ: يا إسماعيل قل لي كم تريد ثمنه حتى أعطيك؟.

فقال: يا سيدي تشتريه مني بقصر في الجنة؟.

فقال الرفاعي: من أنا حتى تطلب مني هذا يا ولدي؟ أطلب من الدنيا.

فقال: يا سيدي شيئاً من الدنيا ما أريد، فإن أردت البستان فاشتريها بما أطلب.

فنكس السيد أحمد الرفاعي رأسه ساعة، واصفرّ لونه وتغيّر، ثم رفع وقد تبدلت الصفرة إحمراراً وقال: يا إسماعيل قد اشتريت منك البستان بما طلبت.

فقال: يا سيدي اكتب لي خط يدك. فكتب له السيد أحمد الرفاعي ورقة فيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما اشترى إسماعيل بن عبدالمنعم من العبد الفقير الحقير أحمد بن أبي

---

(١) بوارق الحقائق ٢٢٩، إرشاد المسلمين ٨٧، روض الرياحين ٦٠.